الفصل التاسع

أُمَّةُ القَراصِنَة

بعض الأخبار الحديثة:

- هنـــاك مَصْنَع للجَعَة قرب مدينة تيانجين Tianjin الســـاحلية يُقَلِّدُ زُوراً ما تُنتجُـــه هايْنِكِنHeineken وبَدْوايْـــزرBudweiser من الجعة. وتُباع الجَعة المُقَلَّـــدَة فـــي المطاعم وفي «أماكن أُخرى للتســـلية». فَتُعَبَّأ الجَعَـــة المُقَلَّدَة في الصين في قوارير نوعها رَدِيء، وقد تَعَرَّضَ المُسْـــتَهْلِكون كثيراً للأذى بانفجار هذه القوارير.
- سَـــطا قراصِنَةُ الغذاء في الصين على كوكا كولا Coca-Cola، وســـتاربَكْس Starbucks، وهـجـن داس Haagen-Dazs فَزَوَّروا منتجات مُقَلَّدَة منها مع أنواع كثيرة أُخرى من الجُبْن الأجنبي.
- قُلِّدَت أَنواع من شامبو تُنْتِجُه شركة برُكْتِر أَنْد جامْبِل Procter & Gamble نحو هِـــدْ أند شـــولْدِرْز Head & Shoulders ورِجُويْسRejoice في لانْزْهو Lanzhou في إقليم جـــانزو Gansu، في جنوب منغوليا الداخلية Inner Mongolia.
- تُزَوِّر شركة في شِنْزهِن Shenzhen بطاقات من شبكة سيسكو Cisco ثري كوم 3Com.
- أنشـــأ مُزَوِّرون في مقاطعة سِتْشـــوان Sichuan ســـجناً كاذباً يصنعون فيه أَرْبَعين نوعاً من السجائر بأَسماء مُزَيَّفَة. وقالت الشرطة: إنها لم يَتَبَيَّن لها إن كان العمال قد استأجرهم المُزَوِّرون أم خَطَفوهم. ويقال: إن الصين تنتج 100 بليون سجارة مزيفة بأســـماء تجارية مختلفة في السنة. وقد وُجِدَت أَصنافٌ

مُزَيَّفَة في سوق لندن تحوي كميات زائدة من النِكوتين وأول أُكسيد الكربون، يزيد مقدارهـــا عن ثُلُث الأصل، ويزيد مِقدار القَطِرانُ فيها عن ثلاثة أرباع الأصناف الأصلية. وتحوي السجائر أحياناً على مُكَوِّناتٍ غَريبة كالبلاسْتِك أو الرَّمْل.

- صادر مسؤولون في كينيَا شحنات كبيرة من إطارات وبطاريات مُزَيَّفَة مَصْنوعة في الصين.

- صـــودرت ألوفَ القِطَع المُـــزَوَّرَة المصنوعة في الصين من مجموعة تجاريَّة في إبس Apex في شـــمال كارولاينا، تُقَلِّد تُومِـــي بَهاماTommy Bahama، وبولـــو Polo، ورالف لُرِيْـــن Ralph Lauren، و تُومِي هلفجر Tommy Hilfiger، وإرْمِـــس Hermes، ولاكوســـت Lacost، وهوجو بُوسّ Hugo Boss، وإمبوريو أرْمانيEmporio Armani من الثياب والبضائع الأخرى التي تحمل اســـم مُصَمِّميها، قيمتها مليون دولار. وقال مُتَحَدِّث باســـم شركة أُكْســـفورْد إنْدَسْـــتريز Oxford Industries، الشركة الأم لـ تُومِي هلفجر: «إننا نراقب دائماً كُلَّ بائِع مُريب في سوق السِلَع الرخيصة أو المستعملة (سوق البراغيث)، ويعمل، تحت ستار تجارة مشروعة».

- وعندمـــا انضم فريق نايْنتِنْدو Nintendo الذي يتحرَّى القَرْصَنَة إلى أجهزة الأمن في الصين في غارة ســـنة 2004م على مصنع للإلكترونيات في جنوب الصين، وجدوا عشـــرة آلاف خرطوشـــة فِلْم مزيَّفَة لأجهزة جيم بوي Game Boy. وكانت الغنيمة صغيرة جداً مقارنة بِحَجم القرصنة التي تواجهها شركة الألعـــاب اليابانية في الصين، حيث صُمِّمَت أفلام أجهزة جيم بوي على نمط لا يُتيـــح مجالاً للنســـخ والقَرْصَنة، فكانت القرصنة تجري على قدم وســـاق. تقول نايْنتِنْدو إنها خسرت 720 مليون دولار من مبيعاتها سنة 2003م نتيجة القرصنة، برغم أن فِرَقَها المُكَرَّسَة لهذا الغرض صادرت أربعة ملايين خرطوشة فِلم مُزَيَّفَة. فتَتَعَرَّض حصة الشركة من السوق المشروعة للضغط، ولا تستطيع أن تتخلى عن قدر كبير من ألعابها التي يرغب فيها القراصِنَة كثيراً.

- بالرغـــم من الإعلان عن حملات وطنية لمطاردة مزيِّفي النظَّارات في الصين، فـــإن نصف النظارات والعدســـات التي تبـــاع في شـــارع رينمين Renmin Road في جوانجزهو Guangzhou مُزَيَّفة، و هذا الشارع من أكبر أسواق النظارات في الصين. فقيمة إطارات النظارات المُقَرْصَنة التي تُقَلِّد جوتشـــي Gucci، وفرزاتشـــيVersace، تتراوح بـــين 0.80$ و 2.50$. وتجد هناك إطارات عليها اســـم لوي فتون Louis Vuitton، برغم أنه لا يصنع أصنافاً من ذلك النوع. وعندما فَحَصَ مســـؤولو جوانجزهو، المَعْنِيّين بالإشراف على الجودة، العدســـات في أســـواق الجملة وجدوا أن 80 بالمئة منها دون مستوى الجودة المطلوبة، وتُعَرِّضُ عَيْنَ مُسْتَعْملها للخطر.

- تَلومُ شـــركة فورد موتور Ford Motor مُزَيِّفي قِطَع الســـيارات على خسارة 2$ بليون من مبيعاتها في السنة. وقد اشتركت الشركة في إغارَةٍ على مصنع صيني يصنع بطانة المكابح، فوجدت سبعة آلاف مجموعة مُزَيَّفة منها. وحَقَّقَت شـــركة جي إم GM ســـنة 2004م في أربعمئة مخطط للقَرْصَنة، منها خطَّة ذكرناها في الفصل الثامن عن ســـرقة مواصفات ســـيارة كاملة، زعم قرصانٌ صيني بناءها. وتقدر وزارة التجارة الأمريكية أن شركات السيارات تستطيع أن تستأجر 210.000 موظفاً جديداً إن هي تَخَلَّصَت من القَرْصَنَة وتجارتها.

- نجحت شـــركة سنجنتا Syngenta السويسرية، الرائدة في إنتاج كيميائيات الزراعة، في مقاضاة قراصِنَة صينيين لِقَرْصَنَتِهم مبيد حشرات متطور تحمِلُ هي براءته، هو ثِيامِثوكْسام Thiamethoxam. وبَيَّنَت الصحافة السويسرية حُزْنَها لِظَنِّها أن تلك المُقاضاة لن تُنْتِج شَيْئاً يُذْكَر.

- اعْتُقِـــلَ أمريكيان في شـــنغهاي، في تموز/يوليـــو 2004، عندهما 210.000 قرص دي في ديDVD مُزَيَّف.

- عندما طرحت شـــركة كرييتف تِكْنولُجيز Creative Technologies، وهي شركة في سنغافورة تصنع الإلكترونيات الاسْتِهْلاكيَّة وقِطَع الكومبيوتر، جِهازاً صغيراً مبتكراً MP3 مَســجلاً ببراءة، سَمَّتْهُ موفو Mu Vo ما لبثَ مُديرون في الشركة أثناء جولتهم في أســواق شنغهاي أن ضَبَطوا نسخاً مُقَرْصَنة من صنع أربعين شــركة مختلفة. وقال سِمْ وونج هو Sim Wong Hoo، رئيس شــركة كرييتف تِكْنولُجيز، أمام اجتماع لاتحاد الصناعات في سنغافورة، إننا لانلبَــث أن نقضي على قَرْصَنة في الصين حتى نَجِدَ أخرى تُقَرْصِن منتجاتنا. وقال: «إنَّك لا تستطيع أن تُقاضيهم كلَّهُم. وكيف نَسْتَطيع أن نقاتلهم؟» ولجأت كرييتف تِكْنولُجيز إلى اعتماد مصانع صينية لإنتاج نُسَخ رخيصة من بضائعها لِكي تُباع في ســوق الصين، فَتُباع بســعر أقل من أصناف تُنْتِجُها الشركة هي أكثر إتقاناً تَبيعُها في أَصْقاع أُخْرى من العالم.

- وثمَّة حالة لها دلالات واســعة عن اســتثمارات للصــين بلغت عِدَّة بلايين من الدولارات موجَّهة إلى احتلال موقع عالمي رائد في صناعة رقاقات الكومبيوتر. فقد ادَّعَت شركة تايوان سِميكُندَكْتَر مانوفاكتشورِنج-Taiwan Semicon ductor Manufacturing Co. ،Ltd.، أو TSMC، وهي من الشــركات العالميــة التي تصنع الرقاقــات، أمام محكمة فِدْراليَّــة أمريكية على قرصان جديد ناشــئ في بر الصين الرئيس هو شــركة سِــميكُندَكْتَر مانوفاكتشورِنج إنْترناشُــنال Semiconductor Manufacturing International Corp، أو SMIC. وما لبثت شــركة بر الصين الرئيس أن ارتَبَطَت بمنافسين أجانب في زمن قصير حتى قال المُحَلِّل جولدمان ساكسGoldman Sachs، ســوف تكون الشــركة ثالث مصدر للرقاقات في العالم في زمن قريب. ونالَت شركة SMIC بعض العَوْن من شركائها التكنولوجيين الألمان واليابانيين. غير أن منافســي SMIC التايوانيين يقولون: إن شــركة البر الصيني الرئيس قد قامت بحملة تَجَسُّــسٍ طويلةٍ وأغارَت على شركات أُخرى. وإن المذكرات التي

كتبها مديرو الشركة الجديدة SMIC وأرسلوها إلى جواسيسهم في TSMC من أجل القضية القضائية تُفَصِّل عمليات الملكيَّة المُتَعدِّدَة التي أرادت الشركة الجديدة أن تسرقها. وانتهت المذكرة بالقول: «إننا نعتذر عن طول القائمة، وإنما نحن في حاجة إلى موادٍ كثيرة حتى نستطيع إنشاء العمل الجديد». ويقال: إن شركة SMIC أغارت على TSMC من أجل 140 من العاملين الرئيسين، منهم رئيس قسم الأبحاث والتطوير R & D ومدير في قسم نقل التكنولوجية.

- لقد بيعت في الصين مئات ألوف النسخ المُقَرْصَنَة من كتب هاري بوتر Harry Potter التي ألَّفها جِيْ كِيْ رولنج J.K. Rowling، وكان نجاحها عظيماً. فقد أنتج قراصنة مجلدات لهم أصلية من قصص بتر وباعوها تحت اسم رولنج.
- كَسَرَ مسؤولون في أربع مقاطعات شرقيَّة في الصين حَلَقَةَ المُفَتِّشين الطبيين وبائعي المواد الصيدلانية المُزَيَّفَة وصادروا أربعين ألف صندوق من لقاحات داء الكَلَب المُزَوَّرَة مصنوعة من محلول ملح فقط. وقد بِيْعَت اللقاحات المُزَيَّفَة لعيادات ريفية في مناطق من الصين حيث ما يزال الكَلَب خَطَراً مُتَرَبِّصاً.
- عندما لجأت ياماها Yamaha إلى قضاء الصين لِمُقاضاة مصانع صينية تبيع نسخاً غير مرخصة من دراجاتها النارية (التي فاق عَدَدُها دراجات ياماها الأصلية كثيراً)، وقد ساعد ممثلَ الشركة اليابانية على إثبات قضيته إدخالُ ثلاثة دراجات ياماها حقيقية إلى قاعة المحكمة لمقارنتها بالمُقَرْصَنَة. وقرَّت المحكمة لياماها $190.000 فقط تعويضاً لها عن القرصَنَة. وتقول وزارة الاقتصاد والتجارة والصناعة اليابانية: إن 11 مليون دراجة نارية أُنتجت في الصين سنة 2002م، كان تِسْع ملايين دراجة منها مُقَرْصَنة، وكانت القرصَنَة هي سبب تراجع مبيعات ياماها في الصين.

- أصـــدرت محكمةٌ في بكين حكماً ضد شـــركة تويوتا Toyota بعد أن ادَّعت تويوتا على شـــركة جيلي Geely، وهي من شـــركات صنع السيارات الصينية الكبيرة الخاصة. وكان ادِّعاء تويوتا عليها لاستعمالها شعار تويوتا واسمها على إحدى ســـياراتها التي تصنعها. وكان تعليلُ المحكمةِ حكمَها أن الصين لا تعرف شعار تويوتا، برغم أنَّه من أشهر شعارات الشركات المعروفة في العالم.
- داهم مسؤولون في شِنْزهِن مجموعة تصنع إلِكْترونيّات لها أربعة مصانع وتصنع أجهزة دي في دي مُزَيَّفَة وُضِعَت عليها أســـماء توشيباToshiba وبناسونِك Panasonic، وســـوني Sony، وفلبس Philips، وسانيو Sanyo، وغيرها. وقـــد فازَت هذه المجموعة، قبـــل مُداهَمَتِها، بجائزة الدولـــة تقديراً لها لأنها «شركة خاصة مستقيمة».
- أعلنـــت حكومـــة الصين المركزيـــة خطةً لمحاربة بيـــع لقاح إنفلونـــزا الطيور المُزَيَّف.
- إن تســـعين بالمئـــة مـــن منتجـــات مايكروســـوفت Microsoft فـــي الصين مقرصنة.

إن الصـــين أرض مصانع العالم، وهي مركـــز العالم لتجارة البضائع المُقَرْصَنة المُزَيَّفَة التي تغلُّ 250 بليون دولار في الســـنة. وتُقَدَّرُ حصَّةُ الصين من تجارة القَرْصَنة والتزييف بين 19$ بليوناً و80$ بليوناً. إن حصة الصين من التجارة العالميـــة تُثْبِت أنها تَتَّجه إلـــى الارتِفاع، وبارتفاعها تَرْتَفِـــع البضائع المُقَرْصَنة في العالم. وتقول شـــركة كَرَّاتـــو إنترناشُـــنال Carratu International، وهي شـــركة بريطانية رائدة فـــي تَقَصِّي أعمال الشـــركات، تُركِّز عمَلَها على تجاوزحقـــوق الملكية الفكريَّة وبراءات الاختـــراع: إن 9 بالمئة من تجارة العالم اليوم هي تجارة المُزَيَّف والمُقَرصَن، ومع زيادة حضور الصين في أسواق العالم، فسوف تتضاعف هذه التجارة أكثر من ضعفين قبل نهاية هذا العقد.

السَّرِقَة جهاراً نَهاراً

تُرى هل تَكْتَرِثُ الصينُ رسمياً بما تفْعَل؟ إنك لن تستطيع معرفة ذلك من مُراجَعَة ما يُعْلَن؛ فإن كان لنا أن نحكم على التزام الصين بالقضاء على القرْصَنة التجارية بالقوانين المعلنة في سِجِلات البلاد رأينا حكومة الصين صارمة في وقفتها تجاه انتهاك الحرمات مثل بلاد أخرى في العالم. وقد أبدَت الصين في السنوات القليلة الماضية اسْتِعْراضاً كبيراً لوقفتها الصارمة في مواجهة القرصَنَة وتزييف دي في دي وأقراص سي دي، والثياب. وكانت الصحف والبرامج التلفزيونية الإخبارية تنقل قصصاً عن مداهمة الحكومة لأعمال قرصنة ضخمة. فصودرت مئات ألوف أقراص دي في دي وأجهزة نسخ هنا، وحُجِزَ مخزن لأقراص سي دي هناك، وأوقفت شاحنات محمَّلة بحقائب يدويَّة مُزَيَّفة. ولم يكن في الصين قبل جيل واحد نُظُمٌ لحماية الملكية الفكريَّة، وتاريخ طويل لثقافة تُبيح النَّسْخ والاستعارة*، فإن مُداهمة القَرْصَنة قد تعد مؤشراً على نِيَّة عند الحكومة لفرض نُظُمِها الخاصة.

غير أن وَفْرَة البضائع المُقَرْصَنَة في الشارع وفي الأسواق لم تَتراجَع. فما زالت أحدث أزياء ميلانو تأخُذُ طريقها في مواسمها إلى أزقة الصين، وما زالت أفلام هوليود تظهر لتُباع على ظهر دراجات في الأسبوع الذي تعرض فيه أول مرة في أمريكا. والمداهمات التي تشنها الحكومة تبْعَثُ الحيرة. فلماذا يُعتقل بعضُ قراصنة الملكية الفكريَّة في مكان ما في يوم ما، ثم تجد القراصنة يَسْرَحون ويَمْرَحون في مكان قريب؟ إن أهداف المداهمات المُعْلَنَة غامضة دائماً،

* إن الثقافة الصينية، التي تُقَدِّر الخضوع والاحترام للأعمال الفريدة، قد نُحِّيَت جانباً من أجل قرصَنة الإنتاج الأدبي، والفني، والمنتجات التجارية. وإن جولة للنظر حول العالم تكفي لأن نرى الصينيين أقل تميزاً لهذا الأمر. وإن نُظُم حماية الملكية الفكريَّة الصارمة تشريع حديث نسبياً، ولم تشَرَّع لمجرد أن بعض الثقافات أقل استعداداً للقرصنة والتزييف من غيرها، وإنما لأن بعضها أكثر استعداداً لمراقبة الدافع المنتشر بين مجتمعاتها لتأمين بيئة توجِدُ مزيداً من الفرص للمستهلك، وتُحَقِّق من ثَمَّ نُمُوّاً اقتصادياً.

وإن الصينيين الذين يقرؤون عنها تراهم يَرْتابون في أَخْذِها على ظاهِرِها. فهل جاءت نتيجة حروب السيادة بين اقطاعات الحكومة الغارقة في القَرْصَنة؟ وهل بالغت المصانع التي تَعَرَّضَت لمُداهمات في ضَغْطِها على تَحَمُّل الحزب لتدخُل الغرب العنيف وعَرْبَدَته؟ هَلْ قَرْصَنوا فِلماً تدعمه الحكومة الصينية؟* أم كان استعراضاً لحسن النيَّة أمام مجموعة تجارية أجنبية جاءت إلى الصين ثانيةً للتعبير عن قَلَقِها من قَرْصَنة الملكية الفكرية؟

وليس يَهمُّ، في نهاية الأمر، من الذي يُقاد مَغْلولَ اليَدين بالأَصْفاد ويُعْرَض على أخبار المساء، فَكُلُّ مَن عِنْدَه في الصين ما يبيع أو يشتري يعلم أن قليلاً ما يُغَيِّر الإدمان الوطني على البضائع المُقَرْصَنَة. وليس ثَمَّة من يتوقع أن تَتَشَدَّدَ الحكومة الصينية باتخاذ إجراءات صارمة لوَقْف القَرْصَنة. فالعقوبة القُصْوى الشائعة للقرصنة هي مصادرة ما توَفَّر من تلك البضاعة. ولا شيء أكثر.

وإن اعتماد اقتصاد الصين على قراصنتة اعتماداً عظيماً حقيقة كُبْرى لا يُمكن تجاهلها. فهم يوفِّرون للناس بضائع أسعارها مُحْتَمَلة. وكثيراً ما تكون البضائع المُقَرْصَنة أدوية وأجهزة طبية، وبعض الأطعمة، وكتب مدرسية، وثياب، بضائع مُقَرْصَنة أساسية غيرها.

وهكذا، فإن أي إجراء صارم تتخذه الحكومة، سيصيب المستهلك الصيني الفقير. ويخدم القراصنةُ الصينَ باغتصاب التكنولوجية الأجنبية التي تحتاج الصين إليها كثيراً لِتُلَبّي أهدافها الصناعية. ويُعطي القراصِنةُ الصينَ باستمرار مزيداً من الشركات المنافِسَة للشركات العالمية فيوفرون لها السُّبُل التي تُمَكِّنُها من مقارعة منافسين أجانب أقوياء مُجْبَرين على دفع بَدَل الحقوق الملكيَّة كاملة للتكنولوجية المُسْتَعملة لمالكيها. ويحرم قراصِنَة الصين، في محيط جيوبلتيّ

* يَصْعُبُ أن تَجِدَ الأفلام التي تدعمها حكومة الصين دعماً قوياً في صناديق البضائع المُقَرْصَنة. كان فيلم البطل Hero سنة 2003 أحد العناوين التي لم يجرؤ أحد على قرصَنَتِها، غير أن نسخة مرخّصة رسمياً بيع منها كميات كبيرة في أقسام دي في دي في المخازن الكبرى والمكتبات.

أوسع، اقتصادات العالم المتقدمة، وبخاصة اقتصاد أمريكا واليابان، ما يستطيعون بـــه بَيْعَ الصين التَّصاميم القَيِّمَة، والســـلع ذات العلامات التجارية، والتكنولوجيا المتقدمة، والمنتجات الترفيهية التي تغزو العالم والتي يلِحُّ الصينيون على اقتنائها وإنما لا يستطيعون إنتاجها بأنفسهم.

ويَشْـــتكي المســـؤولون الصينيون، عند تَحَدِّيهم، من أن القرصنة تُلْقي عليهم عِبئاً ثقيـــلاً يَصْعُبُ عليهم ضَبْطه. ويقولون إن مهمَّـــة الصين الأولى تتركّز على إطعام أبنائها وتشجيع التنمية الاقتصادية، وهم مُحِقُّون في شكواهُم. فليس في القَرْصَنَة ما يُقْلِق الحكومة بما يدفعها إلى تَصَرُّف صارِم. فإذا وقع بائعو دي في دي عَرَضاً على سوق ناشـــطة للأقراص التي تدعم استقلال التيبت، أو فضائل الفرقـــة الدينية المحظورة فالون جنج Falun Gong، أو قبول تايوان في الأمم المتحدة، فإن هذه الأقراص سَـــتَخْتَفي حتماً بين عشـــية وضحاها، وستأخُذ تلك القوانين المحاربة للقرصَنَة طريقها إلى التنفيذ.

وإن للجهات الرسمية الصينية مصالح كثيرة في بقاء القرصنة أكثر من زوالها، ففي الصين تشريعات محلية لاحصر لها، ولكل منها نظام خاص لتطبيقها. وقد شـــهد دانيِّيل سي. كِيْ. تشـــو Daniel C.K. Chow، في نيسان/ أبريل سنة 2004م، أمـــام لجنة شـــؤون الحكومة في الكونغرس الأمريكي، وهو أســـتاذ في كليـــة مورِتْزْ Moritz للقانون في جامعة ولاية أُهايو ومن أشـــهرخبراء القانون فـــي تطبيق حماية الملكية الفكرية في الصين، فقال: «ليس لِمُشْـــكِلَة هذا حَجْمُها وهـــذه أَبْعادُها أن تكون لولا تَدَخُّلٌ مباشـــر أو غير مباشـــر مـــن الحكومة وقد تكون حكومة الصين الوطنية في بكين صادقة في إقرارها بأهمية حماية حقوق الملكية الفكرية، غير أن الســـلطات الوطنية هيئاتٌ سياسية وقانونية؛ بينما يُنَفِّذُ النظامَ والقانونَ على الأرض سلطاتٌ مَحَلِيَّة. وهنا تكونُ الحكومات المحليَّة مَعْنِيَّة مباشرة أو على نحوٍ غَيْر مُباشر بِدَعْم تجارة البضائع المقرصَنَة».

ويقول تشـــو: إن التزييف يَخلق فُرَصَ عَمَل ويدعم اقتصادات محَلِيَّة كاملة. فالأســـواق الكبيرة فـــي أرجاء البلاد، يجمع بَعْضُها أَلـــفَ بائِع أو أكثر في مكان

واحد، وتديرها سلطات محلية، فهي تَلعَب دوراً مُزْدَوِجاً للمنظم والمستثمر في مُعْظَم الأحوال، فدورٌ هوجَمْعُ رسوم الترخيص، ودَوْرٌ آخرة هو جباية الأجرة.

وَعيُ العلامات التِّجاريَّة

وبقي المشهد الرئيس لقرصنة التصميمات في بكين، سنين عديدة، صف طويل من 147 دكاناً، بدائية في هيئتها، في طريق اسمه زقاق الحرير. فقد افْتُتِحَ السوق سنة 1984م فصارَ من أهم ما يقصده السياح في المدينة، يأتي إليه عشرة آلاف زائر في اليوم. 5 فالرجال الأُوروبيون الشرقيون هنا يرتدون سراويل عمل رَثَّة وسترات من الجلد باليَة، يتدافعون داخل الدكاكين بأكياس قمامة كبيرة يُكَدِّسون فيها أكواماً مُقَلَّدَة من جوارب إسبري Esprit، وسراويل كلفن كلاين Calvin Klein، وقمصان لاكوست Lacoste، كي يبيعوها في مكان آخر. وتجد مضيفات شركات الطيران الكبرى يتمشَّين فيها بِلِباسِهِن النظامي المُوَحَّد وهُنَّ مُسْتَعِدَّات للمغادرة في رحلات بعد الظهر، يسحبن وراءهن حقائب سفر، فيملأنها بالساعات، والحقائب اليدوية، والنظارات الشمسية، والأقلام، ووَلاّعات المُدَخِّنين، وكَنْزات نُسِجت من صوف كشمير، وربطات عنق من حرير، وسترات جلدية، كل شيء هنا يشبه تماماً بضاعة أصلية تباع في متاجر العالم، فَيَجِدْنَ في زقاق الحرير مخزن جملة «لحفلات الهدايا» في موانئ أوطانِهِنّ.*

* إن أحد معايير إغْراء السلع المقرصنة في زقاق الحرير هي زيارات المسؤولين الذين ينبغي أن يكونوا في أي مكان آخر غيره. فقد أُمْسِكَت تشارلِن بارشِفْسْكيCharlene Barshefsky، المفاوضة التجارية الشَّرِسَة في إدارة الرئيس كلينتون عند عودتها من رحلة إلى الصين في تموز/يوليو 1998 تُدْخِلُ معها إلى الولايات المتحدة أربعين قطعة لعب من حيوانات بيني بِيْبي Beanie Baby المَحْشُوَّة المزيَّفة، اشترتها من زقاق الحرير لابنتها. والأرجح هو أن هذه اللعب كانت نُسَخاً للسوق السوداء من زقاق الحرير يوم كانت منتجات بيني بِيْبي رائجة جداً. وكان الانتشار الواسع للبضائع المزيفة في الصين مشكلة كبيرة، مما حمل شركة تاي إنك Ty Inc، التي تصنع اللعب، على حشد دعم جمارك الولايات المتحدة لمنع الأمريكيين من العودة إلى البلاد بأكثر من قطعة واحدة من ألعاب بيني بِيْبي المُقَرْصَنة. ولم تكن بارشِفْسْكي تعلم بالأمر على ما يبدو. وقد أحْدَثَ وزير خارجية إيطالية فرانكو فراتِّيني Franco Frattini مُشكلةً عندما اشترى ساعة رولكس Rolex مقرصَنَة في بكين في شهر آب/أغسطس سنة 2004.

بالرغم من هذه التجارة الناشطة بالبضائع المزيَّفة، فإنك تجد اقتصاد بكين المتنـــوع لا يعتمد على صناعات القرصنة مثل اعتماد مدن أخرى عليها. ويوضح تشو Chow قائلاً: إن يْوُو Yiwu، وهي مدينة في مقاطعة زِجيانج Zhejiang مركـــزٌ لتجارة زينـــة الأعياد، وتعرف بأنها مركز للقرصنـــة التجارية. ويقول: إن مئتي ألف زبون يزورون في كلِّ يوم ثلاثة وثلاثين ألف متجر يبيع مئة ألف صنف مُختَلِف في يْوُو. وإن أكثر من 90 بالمئة من المنتجات الاســـتهلاكية التي تباع في يْوُو هي بضائـــع مُقَرْصَنَة: «إن معظم الأعمال القائمة علـــى البضائع المُقَرْصَنَة تفاوِضُ الحكومات المحليَّة على مقدار ثابت من الضرائب تَؤدِّيها إليها... فَحَوَّلَت أعمـــالُ القَرْصَنَـــة يْوُو من بلدة زراعية فقيرة إلى نمـــوذج اقتصادي تصبو المُدُن الأخرى إلى محاكاته». فاتخاذ إجراءات صارمة بِحَقِّ المخالفين ســـيُنهي اقتصاد المنطقـــة». لأن كلفة الإجراءات المحَليَّة الصارمة قد تكون بالغة القســـوة، وتلْقى القرصنة مَحَليّاً دفاعاً قوياً».

وتوجد مجموعة كبيرة من المصانع متمركزة في جوانجدُنج Guangdong قد مَوَّلَتْها وأنشـــأتها أمـــوال أجنبية، وحيث تجِدُ المصانـــع التي يملكها صينيون مجهزة بأفضل الآلات الصناعية فـــي العالم لِتُنْتِج بضائع للتصدير، وقد أفادت مـــن هذه الميِّـــزات البضائعُ المُقَرْصَنـــة في جودتها. فالمُصَنِّعـــون يصنعون هناك نسخاً مُقَرْصَنة من ساعات رولِكس Rolex تستطيع أن تَخْدَع صانعي الساعات السويسريين، والقِطَع الكهربائية المزيَّفة تستطيع أن تمر دون أن يدْرِكَ أَحدٌ زَيْفَها ضِمْن صناديق قطع لصانعي أجهزة مراقبة الآليات والمجسمات العالمية. كالثياب، وتجِـــد البضائع مُعْظَمها من بعض الأصناف الكبيرة من المنتجات المُقَرْصَنة التي تظهر في سوق الصين تبدو كالأصل، فتحمل علامة الصانع، وكأنها تحمل براءة التسجيل، والعلامة التجارية، وحقوق الملكية الفكرية، وكلها مقَرْصَنَة.

وعندما تَجول في شـــارع هوَي هاي Huai Hai في شنغهاي تَجِد كثيراً من المـــاركات الدَّوْلِيَّـــة التي تملأ مَجَلات الأزياء. وعندما تقترب من أكشـــاك خارج

المحلات تُسَمَّى زينجينج جفت Xiangyang Gift وفاشن ماركِت Fashion Market، تجد هناك رجال (عسكر) اقتصاد القَرْصَنة يعمَلون. فتراهُم يُنادون المارَّة يسألونهم إن كانوا يريدون ساعات شهيرة، أو حقائب، أو أفلام دي في دي، ثم يهمسون، أفلام جِنْس. فإذا طَرَدْتَهُم لِتُبْعِدَهُم عنك يقْتَرِب مِنْكَ المَزيد ويعيدون عليك الأسئلة ذاتها. وتوجد أكشاك بيع الصحف والمجلات الأوروبية خارج السوق، مُكَرَّسة للساعات الأنيقة. ويحاول باعة الساعات داخل السوق، أن يجدوا الساعات التي يشير إليها المُتَسَوِّقون على صفحات المجلات والتي توجَدُ عادة عند الباعة في الصندوق الأمامي. أما إذا رَغِبَ الشاري في ساعات أفضل فتَجِدهم يُرشدونه إلى أَزِقَّة خلفية يمرّون فيها بين المُخْبِرين والحرس الذين يراقبون السوق، فيصعد أَدراجاً خَلْفِيَّة إلى غرف كأنها مساكن فقراء، غير أنها غرف عَرْضٍ لأَصْناف كاملة من الساعات المُقَرْصَنة.

اتَّخِذ لك كرسياً تجلس عليه، وسيبدأ سكان هذه الغُرَف عَمَلَهُم، فَيُخْرِجون حقائب من تحت الأَسِرَّة، ويرفعون أزراراً مخادعة في خزائنهم ليخرجوا منها مزيداً من الصناديق، يفيضُ كُلٌّ منها بالنماذج المُقَلَّدة. وتأتي الساعات المزيفة في ثلاث فئات، تتفاوت في جودتها بين فئة من فولاذ غير متقن الصُّنع، وفئة راقية جميلة. فتجد ساعة كرونوجراف المُعَقَّدَة قد زُيِّفت تزييفاً مُتْقَناً، حتى تجد نفسَك بحاجَة إلى دليل الاستعمال الأصلي لكي تعرف عشرات الأُمور التي تؤدِّيها، ومنها، منَبِّه للوقت، وساعة توقيت منقَسِمة split-time stopwatch، ومنازل القمر.

ولا يسَعُ المرء إلا أن يُعْجَبَ بما يرى. ويجول في البال أن الأُلوف من أنواع هذه الساعات المُخْتَلِفَة والمُتَبَدِّلة تُصْنَعُ في مكان ما في الصين في مصانع فيها أدوات وعُدَدٌ دقيقة وخبراء مَهَرَة يعملون لقلب هندسة الكريستال، والوجوه، وأجهزة دقيقة تعمل داخل الساعات – نابض الدقائق، ومُسَنَّنات، وآلية الربط الذاتي. أضف إلى ذلك كل أنواع ساعات لونجينزLongine، ورولِكْس Rolex، وإِبِل Ebel، وسوَتْشSwatche، وبتك فلب Patek Philippe، وأنواع كثيرة

غيرها من الماركات الأخرى، وأعباء إدارة شـــركة ساعات بما يضمن لها أن تبقى قائمة حيث تتَطَلَّب مهارات لا تَخْتَلِفُ كثيراً عن تلك اللازمة لبناء قلوب صناعية، وزرع قرنية العيون، وقِطَع تَضْبط بإحكام الأقمارَ الصناعية.

ماذا يعرف ألْمُع تلامِذَة الصين عن القَرْصَنَة؟

ليس الألمعيّون حِكراً على بَلَدٍ دون غيره. وإنما يَكْمُن الاختلاف بين الأمم في الضغـــوط التي يَرْزَحُ الناسُ تحتها وحوافِزُهم التي يبذلونها في توجيه طاقاتِهم. وإذا كان ثَمَّـــة من يُقِرُّ أن هناك مقداراً مُتســـاوياً مـــن الألمعيَّة في كُلِّ مكان، فإن وجود عَدَدٍ كبير منهم في الصين لا يفاجئ أحداً. وعندما يخضع طلاب المدارس الثانويـــة في الصين إلى امتحان لدخـــول الجامعات، للحصول على عدد محْدود من الأماكن مقارنة بعدد ســـكان الصين، فإن الطلاب الذيـــن يُقْبَلون في أَفضل كليات الصين هم أَلْمَعِيُّون، ومثابرون، وطموحون.

وتراهُم يعيشون في الجامعة في مساكن ضَيِّقَة، لا تختلف كثيراً عن مساكن تســـكنُها نساءٌ مهاجرات يَعْمَلْن في شِنْزِهِن Shenzhen. يُحْشَرُ كل ستة طلاب منهُم في غرفة لايَتَوَفَّرُ فيها ما يحفَظ خاصيَّة أحدٍ منهم، وربما يكون فيها طاولة واحدة كبيرة يجلســـون إليها جميعهم يعلوها مصباح نيون يَهْتَزُّ ضَوْؤُه، ولا يَفْشَل إلا القليـــل القليل من طلاب جامعات الصين فـــي إثبات كَدِّهم واجتهادهم الذي أَوصَلَهُم إلى كَنْزِ التعليم العالي.

إن جامعة تسنجـــهواTsinghua في بكين هي الجامعة الرائدة في العلوم والهندســـة في الصين*. ويســـاعد الكدُّ والكفاح اللذان يتجشَّمهما الطلاب في

* وثَمَّة جامعات منافسة. مثلما يتنافس معهد مَسَشُسِتّس للتكنولوجية (MIT) Massachusetts Institute of Technology إلى التنافس مع كَل تك Cal Tech وجامعة متشِجنUniversity of Michigan، فإن تسنجهوا Tsinghua تتنافس مع جامعة نانجنجNanjing University وجامعة فودَن في شنغهاي Shanghai's Fudan University. أما المُبَرِّزون في امتحان العلوم في الصين فمصيرُهُم إلى تسنجهوا.

سبيل دخول الجامعة والبقاء فيها على توثيق الصلة والروابط بينهم فترات طويلة بعد التخرج. وإن منتدى مقاولي تسنجهوا Tsinghua Entrepreneur Forum هو أحد سبل روابط الطلاب القدامى ببعضهم. يعقد المنتدى اجتماعات شهرية في فندق بكين، حيث يقصدها خريجو تسنجهوا الذين يتمتعون بشجاعة تكفي لبدء أعمال تكنولوجية خاصَّة، ويثابرون بين القصص والإستراتيجيات والاتصال. وقد يكون بعضهم من الخريجين الجُدُد، وبعضهم قادمون من عمل حكومي أو من شركات كبيرة صينية أو أجنبية، وآخرون قد عادوا من دراساتهم المتقدمة في الخارج.

إن الصين اليومَ أرضُ البدايات، ويتوقُ خريجو تسنجهوا Tsinghua إلى اقتناص اللحظة الذهبية كما كان مقاولو وادي السيلِكونSilicon Valley يتوقون إلى اقتناص فرَصِهم في التسعينيات. ويُتْقِن خريجو تسنجهوا الإنجليزية، ويقرؤون صحافة العالم بالاتصال السريع بالإنترنت، ويرتادون المكتبات الكبيرة الزاخرة بكتب الأعمال والاقتصاد وكتب لمؤلفين مثل دِيْل كارنجيDale Carnegie وزِج زِجلر Zig Zagler، وأساتذة المالية الغربيين، وروّاد الجودة، ومؤلفي كُتُب سِيَر رأسماليين أعلام. ويعرف خريجو تسنجهوا التواريخ المهمَّة الاتفاقات من سيرة حياة هنري فوردHenry Ford ومايكل دِلّ Michael Dell، إذ يقرؤون عنهم بشوق مثل المدراء الأمريكيين فَيَنْكَبُّون على كتاب فن الحربThe Art of War في مصنع سيارات جيب بكين Beijing Jeep.

إن الفرص غير المحدودة التي تُتاح لهم من كُلِّ حَدْبٍ وصَوْب تجعل المرءَ يَتَوَقَّع أن تَتَدَفَّقَ الأفكار الإبداعية من خريجي أفضل جامعات الصين في العلوم والتكنولوجيا. فقد كان وادي السيلِكون المكان الذي كانت الطلبات فيه تقضي على خيارات أقل كثيراً من ألوف الأحلام الكبيرة التي يصعب تحقيقها، بِرغم وَفْرة الإبداع. أما إذا تجولت في الغرفة وتَقَصَّيت من يتَصَدَّون للأعمال المبدعة ومخططاتهم، فإنك ستجد المفاجأة. سوف تَجِدُ قِلَّة منهم يُغامرون بخوض ميادين

إبداعية، كتعليب أدوية عصرية تحوي كيميائيات من أدوية صينية تقليدية، بينما تجدُ آخرين ممن لهم علاقات مع الجيش يعملون على تكنولوجيات عسكرية وأمنية.

وثمَّـــة مجموعة من ثمانين في المنتدى، وهذا رقم مُسْـــتَغْرَب، يعمل نِصفُهُم تقريبـــاً على تطوير خدمات تَتِـــمّ بأجهزة الهاتف الجـــوال. ويعمل بعضهم على تطويـــر ألعاب تتِمّ علـــى أجهزة الهاتف. وقد بلغت مبيعات الشـــركات التي تبيع وسائل رســـائل التسلية على الهاتف الجوال 460 مليون دولار سنة 2004م. ولا يســـتعمل الصينيون أجهزة الهاتف الجوال للاتصالات الصوتية بقدر ما يفيدون منها في خدمات أُخرى؛ كالرســـالة القصيرة أو SMS. ويتبادل الصينيون مئات بلايين الرســـائل القصيرة فيما بينهم في كل سنة. ويفضل الشباب ممن هم دون الخامسة والعشـــرين من العُمر الرســـائل الهاتفية على الاتصال المُباشر، وربما يكون الســـبب عند أكثرهم رخص الرســـائل. وثَمَّة أســـباب اجتماعية، فالنميمة أســـهل نقلاً في الرسائل الهاتفية الصامتة، وكذلك نقل خبر مزعج. ولعل الذين يتعاملـــون مع الصين يدركـــون أن قليلين من الصينيين يتَّصلـــون معهم في أمور أعمالهم عبر الهاتف، وإنما يرسلون لهم رسالة نَصِّيَة.

غير أن إرســـال الرســـائل إلى الأصدقاء ليس إلا البداية. إذ تُرْسِل شركاتٌ وبعض الخدمات نشرات يومية إلى هواتف الناس فيها نكات، وأخبار عن مشاهير من الناس، ورســـائل، وقصص مؤثرة، أو دروس في اللغة الإنجليزية. إن الســـوق كبيـــرة، غير أن تَرَكُّز المصلحة في لقاءات تسنجـــهوا يبدو مُحَيِّراً للوهلة الأولى مقارنـــة بصناعات الصين الكبرى، ومشـــروعات البناء، والعقـــارات، أو مبيعات التجزئة، فإن تسلية الهاتف الجوال لاتُشَكِّل حجماً كبيراً.

فلماذا تَجذُب رسائل الهاتف الجوال وما يلحقها من تسلية كل هذه المواهب؟ لعلَّ الســـبب الرئيس هو أن أولئـــك الألمعيين الذين يضطلعـــون بالعبء يعرفون أنـــه عمل عَصِيٌّ على أن تُسْـــرق فيه أفكارُهم الرائـــدة ومخططاتهم. إنه يفرق رســـائلَ الهاتف والتسلية عن غيرها من أُمور التنمية الإبداعية في الصين، حيث

المَضْمون والتصميمات التي تقدم نَفْحَةً من فرصة تصبح رائجة تُقَلَّد وتُباعُ في وَمْضَة عين.

ويجب أن تُباع الرسائل الهاتفية وخدمات التسلية من خلال شركات تكون البائع الرئيس لخدمات الهاتف الجوال. وإن شركة تملك لعبة عظيمة لأجهزة الهاتف الجوال تبيعها عبر الهاتف، وتقتسم عائداتها مع شركة الهاتف. وقد تكلف اللعبة سبعين أوثمانين سنتاً فقط، وتُباعُ بأكثر من مليون ضعف في سوق الصين الكبيرة. ولما كان الناس لا يستطيعون أن يلعبوا ولا أن يُجَدِّدوا ألعابهم إلا عن طريق خدمات الهاتف، فإن المال سيذهب حتماً إلى الذين طَوَّروا البرنامج وإلى مالِكيه أصحاب الحق. ويملك أولئك الألمعيون، نحو مجموعة تسنجهوا، صُنوف أفكار عظيمة لجميع الأعمال، ويعرفون مكمَن قطاف ثمار مواهبهم وأنها ستلقى حماية ولا تُسْرَق.

فإذا قارَنَّا ذلك مع أسواق أُخرى مُزْدَهِرَة في الصين كالأزياء، وبرامج الكومبيوتر، والأفلام، والموسيقا، وقِطَع غيار الآلات والسيارات، وأطعمة ذات علامات تجارية، نجد أن جميع أنواع الحماية القانونية القياسية كحقوق التأليف والنشر، وبراءة تسجيل اختراعات، وعلامات تجارية موجودة كلّها في القوانين المُبْرَمة، غير أنها غائبة عن واقع حياتهم، وبذلك يصبح كل ما يستحق الحماية في سوق الصين هدفاً لِلمُزَيِّفين والقَراصِنَة. وليس خافياً أن الصين قد انتزعت نفسها مما كانت فيه إلى اقتصاد السوق عندما استجمع شعبُها شجاعتَه وقوَّتَه والتفَّ على مُعْظَم نُظُم الحكومة الصينية. وقد أمْضَت الصينُ أكثر أيام القرن العشرين في الالتفاف على هذه المجموعة من النُّظُم أو تلك. وكان بلوغ الشيوعيين قبضةَ الحكم رداً على نُظُم الصين القديمة والقوى الأجنبية. وقد عاقَبَ إيمانُ ماو Mao بالثورة المستمرة الصينيين الذين كان فهمهم لتوقّعات الحكومة والمجتمع راكداً مُتَحَجِّراً. فالكُنْفوشيّون، والديمُقْراطيون، والفاشيون، والماركسيون السوفيت، ومعلمو المدارس الذين التصقوا بدروسهم، ومالِكوا الأرض، والفلاحون، وأصحاب

الأعمـــال، وعُمّال المصانع، وكل من عاش حقْبَةً بعد أُخرى حيث اتِّباعُ نُظُم الأمس يُحَقِّقُ مأْســـاة لِغَدٍ آت. لقد تعلم الناسُ في الصين مع مَرِّ الأيام أن الأنظمة تنشُرُ الكوارث، وأن إيجاد سُبُل تَلْتَفُّ عليها يُوَفِّرُ الأمل والكرامة.

إنه مشـــهدٌ طبيعيٌ أَنْ يَرى الغرباءُ الأَســـواقَ المركزية في مدن الصين أَوْكاراً للصوص؛ حيث يشـــتري الناس الثياب، والموســـيقا، والأفلام، والأجهزة، وبرامج الكومبيوتر المختلفة، وحيث تُقَرْصَنُ جميع منتجات العالم المُمَيَّزَة وتباع بشكل لم يُسْبَق بيعاً غير شرعي.

نَوافِذ تُفْتَح في كُلِّ مَكان

لو أنَّك تَجَوَّلتَ في كلِّ أرجاء الصين، حيث يَسْتَعْمِلُ الناسُ أجهزة الكومبيوتر، تَرى الصِّعاب التي تواجـــه جماعة تسنجهوا. وتباع أجهزة الكومبيوتر وبرامجها في مدن الصـــين الكبيرة، في مراكز بَيْع كبيرة Mall حديثة ذات أدوار مُتَعدِّدَة. وإن مركـــز باي ناو هُوي في بكـــين Bai Nao Hui، الذي يُكْتَبُ باي ناو-Buy Now، مـــن أكبر تلك المراكز التجارية. ويتألف من بناءين، كل منهما مدينة قائمة بذاتها، يربطهما جسر للمشـــاة، فيهما مئات الدكاكين والأكشاك، ويمكن اعتبار معظمها جزءاً من سوق الكومبيوتر الشخصي. إن دخول المكان مثل المشي داخل جهاز كومبيوتر شديد الاستطاعة. فهناك أكشاك كاملة لا تبيع إلا ألواح دارات، أو مشَـــغِّلات مخازن الذاكرة، أو شاشـــات، وقد رُصَّت مُنتجَاتهم داخل علب من زجاج على طول المَمَرَّات. فإذا رَقَيْتَ مُستوىً أعلى وَجَدْتَ من يبيع أجهزَةً كاملة. وتَجِدُ هناك عشـــرات العلامات التجارية لأجهزة كومبيوتر محمول تُعْرَضُ على مِنَصّات، وقد غُلِّف مُعْظَمُها بالسِـــلوفان، وتُرِكَت أجهـــزة أخرى مَفْتوحَةً تَعرض أفلام دي في دي. ويَحْمِلُ بَعْضُها علامات مشهورة نَحْو، سوني Sony، وآي بي إم IBM، ودِلّ Dell، ويحملُ كثيرٌ منها علامات تجاريَّة نَكِراتٍ غير معروفة خارج الصين أو تايوان. وتَجِدُ هناك فارقاً مهماً.

فإذا اشـــتريت جهاز كومبيوتر جديدً في طوكيو، أو لندن، أو نيويورك تَجِدُ معه نظام تشغيل، يكون عادة مايكروســـوفت وِنْدوزMicrosoft Windows، وتَجِدُ مجموعةً من البرامج تُمَكِّنُك من أن تبدأ بطباعة وثائقك ومعالجة أرقامك. ويُؤَدِّي صانعو أجهزة الكومبيوتر في تلك الأسواق بدَلَ حقوق ملكيَّة تلك البرامج ويضيفـــون تلك البـــدلات على قيمة الجهاز التـــي يدفعها من يَشْـــتَري. أما إذا اشـــتريت جهـــاز كومبيوتر قد صُنِعَ مَحَلياً من ســـوق بكين باي نـــاو، فإنَّه يأتي دون نِظام تَشـــغيل مُرَخَّص، ولن تكون البرامج المرفقة الأخرى مُرَخَّصَةً. ويعتقد البائعون في الصين وكذلك من يشتري، أن تلك المُرفقات المُرَخَّصة باهظة الثمن. ويرجعُ هذا الاعتقادُ إلى ما يجري على لسان المُسْتَهْلِك في الصين من أن كلَّ ما يُمكِن إعادة إنتاجه يكون باهظاً إذا بيع بمبلَغ يزيد عن كلفة الجهاز الذي يُنْسَـــخُ عليه. فالنسخة الأصلية من وِنْدوز Windows تأتي على أقراص مُتْقَنَة الصُّنع تَصْعُـــبُ قَرْصَنَتُها، وَتَتَطَلَّب تســـجيلاً لها قَبْلَ تَشـــغيلها عن طريق الإنترنت لكي تَعْمَل. فتضيف هذه المَيِّزات مبلغاً يتراوح بين 40$ و 60$ إلى قيمة الكومبيوتر. ولا يَسْـــتَغْرِقُ الأمرُ في الصـــين إلا بضع دقائق من وقت البائع لتحميل نُسْـــخَةٍ مُقَرْصَنَـــة من ويندوز على جهاز كومبيوتر جديد بمبلغ زهيد، فَيَسْتَسْـــخِف من يريد شراء جهاز جديد بتَسْديد الثمن الصحيح الرسمي.

وإن الأدوار العليا من باي ناوBuy Now تُعجِبُ أكثَر. إذ تَجِدُ فيها مخزناً بعد مخزن، وقد حُشِـــرَت على رفوفها المرتفعة من الأرض إلى السقف عُلَب البرامج. ويأتي مُعظمها في علب مُسْتَطيلة تُباع فيها أقراص دي في دي، لكل منها غلاف مطبوع يُحاكي غلاف النســـخة الأصليَّة المرخصة. وتُعَلَّب بعض العناوين الرائجة فـــي أنماط مختلفة، يُبَيِّنُ بعضها محاولة صنع علبة تَظْهَر كأنها العلب الأصليَّة. وتَفْضَح العُلَبُ الأُخرى زَيْفَ ما تَحْويه وتَفْضَحُ قَرْصَنَتَها.

ولعل أهم ما في هذا المركز هو أَدوبِ كْرِيتف ســـويت Adobe Creative Suite، وهـــي مجموعة برامج جرافِكْس تتضمّـــن كل ما تحتاج الأعمال إلَيْه من

تصميم، وعرض، وتحرير للنَّشرات والعروض. تباع المجموعة في الولايات المتحدة بـ 750$ تقريباً. وبرغم أن أدوبِ كْريتف سويت من أكثر البرامج رواجاً في العالم التي تستعمل في إعادة إنتاج الوثائق والصور وإخراجها إخراجاً حسناً، فإنه يُباع في الصين في علبة يوحي غلافها بأن صِغاراً قد عَبَثوا في صنعه، فَقَصُّوا ولَصَقوا دون اكتراث بإتقانه.

وإن فُرَص عمل البرنامج بنجاح ممتازة. فكثيراً ما تعمل البرامج المُقَرْصَنة التي تباع في أكشاك البيع غير الشرعي في الصين أفضل من النسخ الأصليَّة، فالباعة يُكَلِّفون أَنْفُسَهُم عَناءَ تَحْديث برامجهم عن نُسَخ أصلية محدَّثة مَسْروقة، وتلك عملية يضجَر منها الذين يشترون النسخ الشرعية إذ ينبغي أن يُجْروا هذا الأمر هُم. ويتمتع برنامج ويندوز إكْس بي Windows XP المُزَيَّف، على سبيل المثال، بدرجات أعلى من الأمان والثبات عند جمهور تسنجهوا من ذلك البرنامج الشرعي الذي تنتجه مايكروسوفت.

وتَجِدُ في مركز البيع mall هذا، كُلَّ برنامج مُقَرْصَنٍ رائج، وكل لعبة كومبيوتر بي سي PC قد أُنتِجَت ثُمَّ اختفى كثيرٌ منها عن رفوف الباعة خارج الصين. أما أُولئك الصينيون من مُحِبي الألعاب الذين تستهويهم كرة القدم الأمريكية، فيَجِدون نُسَخاً من فنون إلِكترونيَّة لمباريات جون مادِن John Madden الرائجة من مُعظَم المواسم الخمسة التي خَلَت. وثَمَّة أساليب لسباق افتراضي لكُلّ نوع من المركبات على طرقات رقَمِيَّة، أو أجواء رقَمِيَّة، أو عوالم بديلة لا تُحْصى.

وإن من الحقائق التي تَجُرُّها هذه المتاجر إلى البيوت هي أن عالم البرامج وَلودٌ بوَفْرَة مُدْهِشَة، وتَجِدُ عشرات البرامج الفاشِلَة مُقابِل كُلِّ عَمَلٍ ناجِحٍ منها. وعندما تَتَدَهوَرُ أسعارها إلى دولارين أو دولار واحد، وهو متوسِّط ثمن علبة من هذه الأقراص التي تباع في باي ناو، – فإن المنتجات الكاسِدَة تَجِدُ من يطلبها. تُرى، كَمْ سَتَشْتَدُّ شَهْوَةُ الناس للاختبار إذا تحول أكبر باعة البرامج على شَبَكَة الإنترنت في أمريكا، وأوروبا، واليابان إلى مخازن دولار. إن سوق البرامج في

الصين، كما هو سـوقها للموسيقا المسجلة على أقراص سي دي وأفلام دي في دي، هو مخزن كبير من مخازن الدولار.

وانظُر كيف تستطيع شراء ما يلزم مكتبك أو مصنعك في مكان مثل هذا حيث يمكنك ملء العربة التي تجمع فيها ما تشتري مما يلزم مكتبك من معظم البضائع التي تحتاج إليها لإدارة عمل في مستوىً عالمي بِثَمَنٍ بَخْس. سوف يَحْمِل كلٌّ جهاز كومبيوتر نسـخةً كاملةً من مايكروسـوفت أوفس Microsoft Office، وبرامج تصميم، ومجموعات برامج تبلـغ قيمة أمثالها في بلاد أُخرى ألوف الدولارات. وسـيكون لكل جهاز برامج مُتَقَدِّمة لإنشـاء مواقع علـى الإنترنتWeb sites وإطلاقهـا، وتحضير صفائح «سبـرِد شـيت spreadsheets، وإدارة مبيعات إلكترونية على مواقع على الشـبكة، ومعالجة صُوَر فوتوجرافية، وتعديل أفلام الفيديو على طرائق هوليوود، وتوزيع الموسيقا، وإن اقتضت حاجة العمل، تصميم آلات صناعية، وتشغيل خطوط إنتاج، أو محاكاة اختبارات عقاقير.

انْظـر إلى ذلك كُلِّه، ثم انظر إليها عندمـا تَدْخُل مكاتب صينية، حيث تَجِدُ أجهـزة كومبيوتر لا تحمل علامات تجارية، فيها مخازن ذاكرة تحمِلُ برامج تبلُغ قِيَمُهـا أُلوف الدولارات لم تكلِّف من يشـتريها هنا إلا مبلغـاً زهيداً. وربما كان أكثر ما يلفت الانتباه أن أجهزة الكومبيوتر تسـتطيع دخول المواقع على شـبكة الإنترنت حيث توجد جميع البرامج التي يرغب فيها الباحث، وقد حُوِّرَت جميعها واخْتُرِقَت فلا تَتَطَلَّب تسجيلاً لها قبل استعمالها، فهي جاهزة لمن يَسْتَعْمِلُها دون مُقابِل. وبذلك لايحتاج سـوق البرامج الصيني إلـى بائعي باي ناوBuy Now أبداً، وإنما يسجلون البرامج المتوفِّرة دون مقابل.

فما حجم سـوق البرامـج المُقَرْصَنة في الصين؟ يسـتعمل الصينيون أكثر من تسـعة مجموعات برامج مُقَرْصَنـة مقابل مجموعة واحدة من البرامج الشـرعيَّة. وتحدد مجموعة اتِّحاد البرامج التجارية The Business Software Alliance، وهي مجموعة منتجي البرامج الأمريكية، خسـارة مبيعات البرامج التي تُسَبِّبُها

القَرْصَنَــةُ الصينية في العالم بـ 3.82 بليون دولار في الســنة*. فإذا قارناه بما جنته مايكروســوفت في الســنة المالية 2004م الذي بلغ 8.16 بليون دولار، فإن المبلغ قد لا يبدو ســيئاً. غير أن الرقم قد لايمثــل حقيقة المبلغ وربما يكون أقل منه كثيراً. فقد اشــترى الصينيُّون عشــرة ملايين جهاز كومبيوتر شخصي سنة 2004م. وإذا افترضنــا أن تســعين بالمئة من هذه الأجهــزة تحوي مجموعة من نُسَــخ مُقَرْصَنَة من وينــدوز، وبرنامج أُفِس، ومجموعتــين أو ثلاثة من البرامج المستعملة في تطبيقات شــائعة منها، أدوبِ فوتوشوب Adobe Photoshop لمعالجة الصور، وأكْروبات Acrobat لإعداد الوثائق، أو ربما ماكروميديا فلاش Macromedia Flash للرســوم الموجودة على شبكة الإنترنت، وبعض الألعاب وبرامج لنســخ أقراص دي في دي وعرضها، فإن مقدار خسارة المبيعات يتجاوز عشــرة بلايين دولاراً في السنة. ولتقدير المبيعات في العقود المُقبِلة – فإن معدَّل نمو مبيعات أجهزة الكومبيوتر الشــخصي قد تجاوز 10% في الســنة – تزيد الخسارة المتراكمة عن 150 بليون دولار و ربما بَلَغَ ضعف ذلك.

غير أن هذه الحسابات النظريَّة مُضْحِكة ولا تخلو من سُخْفٍ يَرْفُضُهُ العقل. فلو أن القَرْصَنــة في الصين قد أمكــن حَجْرُها، بقُدْرَةِ قادرٍ، فلا يُتَوَقَّع أن يَنْدَفِع ملايين المستهلكين الصينيين إلى المخازن الشرعيَّة لشراء برامج تبلغ قِيمَتُها مِئات الدولارات أو أُلوفها. فلا يملك ســواد النّاس الأعظم أن ينفِقَ كلٌّ منهم 1000 دولار على برامج الكومبيوتر. ويُدرك الصينيون هذه المغالطة البعيدة عن المنطق السليم التي تكمن في صُلب جَدَلهم عن ارتفاع قيمة البرامج الذي يُبيح غَضَّ النَّظَر عن القَرْصَنَة.

* إن نســبة القرصنة العالمية للبرامج تبلغ 39 بالمئة، أي أن أربعين بالمئة من البرامج المســتعملة على أجهزة الكومبيوتر تأتي من قنوات ضبابية لا تعود بِنَفْعٍ على صانعيها. ويَبْلُغُ مِقدار قَرْصَنَة البرامج في الولايات المتَّحِدَة ذاتها 23 بالمئة، فالبرامج غير الشــرعيَّة تُشَــغِّلُ عــدداً غير قليل من أجهزة الكومبيوتر. ويقول اتِّحاد البرامج التجارية The Business Software Alliance إن القرصنة فــي الولايات المتحدة إذا قيســت بالمبالغ اللازمة لشــراء تلك البرامج المقرصنــة، تُكلف صناعة البرامج 6.5 بليون دولار في السنة.

ويَرْجِـعُ هذا الأَمر إلى تَعادُل القُوَّة الشـرائية. فبالنظـر إلى قيمة برنامج مايكروسـوفت أُفِس برفِشـنَل Microsoft Office Professional البالغة 500$، ينظر الاقتصاد الصيني إلى هذا المبلغ وإلى ما يمكن أن يشتري من سِلَع وخدمات أُخرى. ويذهب الجدل الصيني من هذا المبلغ المرتفع، فالبرامج الأجنبية تقع خارج دائرتهم وبذلك يندر شـراؤها بالقيمة الشـرعية. وقد بَثَّ لي ووكيَنْـج Li Wuqiang، أحـد رجال وزارة العلوم والتكنولوجية الصينية، شَـكْواهُ مجلَّة نيوزويك Newsweek فقال: «إن قيمة منتجات مايكروسـوفت باهظة جداً في غياب المنافسـة». وتَساءَلَ الصيني، من ذا الذي يُصبُيه أذىً من قرصَنَة منتجات مايكروسـوفت من أولئك الذين لايملكون شراءها؟ فإن لم يكُن ثمَّة ربح تُحَقِّقه، فليس هناك ما تَخْسَرُه، أليس كذلك؟ إن هذا الجَدَل يحْمِلُ في طَيَّاته قُوَّةً مُقْنِعَةً أَجْبَرَت شركات إنتاج البرامج العالمية على أن تأخُذَ في اعْتِبارِها احتمال خَفْض أسـعار منتجاتها في سوق الصين. ولطالما أعلنت مايكروسوفت عدم استعدادها لذلـك، غير أنها أَبْرَمَت صفقات كبيرة لتزويـد أكبر صانعي أجهزة الكومبيوتر الشـخصيَّة في الصين بِنِسَخ شرعيَّة من ويندوز، الذين يُسَيْطِرون معهاعلى 60 بالمئة من السوق المحلية.

ولن تفيد مايكروسـوفت من جميع مبيعات الصانعين. فالشـركات مشغولة بحرب أسـعار ضارية خَفَضت قيمة أجهزة الكومبيوتر الشـخصية المجهزة بما يلـزم لها إلـى 350$. غير أن هذه الأجهزة قـد بِيْعَت عارِيَةً مـن نُظُم ويندوز Windows التـي تُشَـغِّلُها. فكان على من يشـتري جهـازاً أن يحصل هو على برامجه. وقد بدأت تَشِـيْعُ مُؤخَّراً في الصين نسـخة محلية من لِنُكْس Linux، وهو نظام مفتوح المصدر، زهيد القيمة. وتُدْرِكُ مايكروسوفت، أن هذا النظام إذا شاع استعماله، فسوف تكون له قاعدة هائلة تتحدى هَيْمَنَةَ ويندوز في العالم.

وهكذا نجحت حكومةُ الصين، بإرغامها مايكروسوفت، أن تفتح الرمز السري لتشغيل برامجها، أو تَخْسَرَ أعمالها مع الحكومة لنظام مفتوح المَصْدَر. فرضَخَت

مايكروسوفت لشروط الصين ولضغط بلدان أخرى لِلْبَوْح بمَزيدٍ من أسرارها، فَعَرَضَت رُخَصاً مجانية لِستين حكومة ومنظمة دولية، فَسَلَّمَت مُخَطَّطات دُرَّة تاجها، برامج أوفيس.

وإذا كان في رَدِّ مايكروسوفت على القَرْصَنَة وعلى برامج نظام مفتوح المَصْدَر، المتاحة في بُلْدانٍ أُخْرى، ما يشير إلى شيء ما فإنه يشير إلى أن الشركة قد أخذت في حُسْبانها خَفْضَ ثمن ويندوز في الصين. ويُقِرُّ مُديرو مايكروسوفت في مجالسهم المُغْلَقَة أن النسخ المُقَرْصَنَة في الصين من برامجها كان لها بَرَكة عادت عليهم بِنَفْع. فَفَتَحَت الشركةُ قنوات تُوَزِّع لها برامج مايكروسوفت مجاناً، برغم أنها بَقِيَت تحتفظ بموقعٍ متقدم. وأخَذَت الشركةُ على نَفْسِها عَهداً أن تُنْفِقَ 750 مليون دولار في الصين لتدريب مُطَوِّري برامج وأجهزة كومبيوتر. وسوف يُقْتَطَع جزء من ذلك المبلغ فَيُحْسَبُ من قيمة برامج تقدمها الشركةُ جزءاً من البرامج التي تُوَزِّعها. فأعْطَت هذه الجهودُ الشَرِكَةَ قُوَّةَ دِفاعٍ في وَجْهِ برامج نظام مفتوح المَصْدَر.

ويُحِبُّ مُسْتَعْمِلو البرامج أن يُظْهِروا نَصيبَهُم من سَمْعَة مايكروسوفت، بما يضع الشركة، في نَظَرِهِم، في المَوْقِع الأخلاقي ذاته لعُصْبة مُسْتَعْمِلي البرامج في الصين. فعندما يَقْصدُ طالبٌ كشْكاً يَبيع برامجاً في باي ناو Buy Now، يَتَفَحَّص نسخةً من وَنْ نُوْت OneNote، وهو برنامجٌ جديد من تطبيقات مايكروسوفت أُفِس يُسْتَعمَل في ترتيب ملاحظات وتَداولها وفي أعمال عَبَثٍ ذكي intelligent doodles، فَيَقْلبُ العلبة ويدرُس ما عليها من معلومات باللغة الإنجليزية. وعندما يُسأل بواسطة المترجم لماذا لا يشتريها بالثمن المُخَفَّض المعروض ويُجَرِّبها في بيته؟ يُجيب بِلكْنَة، غير أنها إنجليزية أمريكية اصطلاحيَّة، إنه يُريدُ أَن يَرى كَيْفَ يَعْمَل البرنامج مع أعمال أُفِس أُخْرى. (ويَتَبَيَّنُ أَنَّه كان طالباً في جامعة جنوب كاليفورنية فقضى هناك زَمَناً). ويقول: إنه يَقْتَني جميع هذه البرامج وسيشتري هذا أيضاً، حيث يَقِلُّ ثَمَنه في الصين كثيراً عن ثَمَنِه في أمريكا.

وسُـئِلَ الطالبُ إن كان يُزعِجُه أَن يَشْـتَري بَرامِجَ مُقَرْصَنَة؟ فَهَزَّ كتفيه غير مُبالٍ بالأمر وقال: «إن مايكروسـوفت تأخذ برامج أيضاً،» وعدَّدَ مجموعة برامج يحفظهـا كثيرٌ من العارِفين بالكومبيوتر في الصـين عن ظهر قلب فقال: «لقد أخذوا ويندوز من آبلApple، وأخذوا إنْتِرْنِت إكسبلورر Internet Explorer من نِتْسْكيپ Netscape، وبكت بي سي PocketPC من بالم Palm».

وإذا طَرَحْت وجهَةَ نَظَر مايكروسوفت فسَتَجِدُ الشاري يقاطِعُك بِرأْيِه قائلاً: إن برامج أُفِس الشرعيَّة باهظة الثمن.

عندما يتعلَّق حوار مخزن البرامج بمسؤول في التجارة الأمريكية يتحدث عن جذور المشكلة، تَجِدُهُ يهزُّ رَأْسَه مُتَجَهِّمَ الوجه ويقول: «ليس في سياستنا التجارية أَوْلَويَّـة تَتَقَدَّم على القتال لحماية الملكيـة الفكرية الأمريكية. إنَّه جهد مُهِمٌّ جداً يُعادِلُ حَرْبَنَا على أَسْلِحَة الدَّمار الشامل. إننا نُرَكِّز اهتمامنا عليه».

إن مِقْـدارَ الالتزام يمَثِّلُ مِقْدارَ التحدي. وتـرى الصينيّين في تفاوضهم مع الأمريكيين يسـارعون إلى القول إنَّهُم عندما يحاولون التَّقَدُّم في مسـألة حماية الملكية الفكرية يَجدون الولايات المتحدة ومعظم دول العالم الأخرى تتراجع. فقد بدأت مشاركة ملف الموسيقا على الإنترنت مع نابستر Napster واستمرت دون مقاطعة. أما الآن، فقد أصبح نسخ أقراص السي دي والـ دي في دي ومقايضتها أمراً شـائعاً بين المراهقين وطـلاب الجامعة الأمريكيين. وقد سـهلت التغطية التي أَوْلَتْها الصحافةُ الصينية لمعارك مايكروسـوفت القضائية تشبيه ممارسات الشـركة بممارسـات مسـتخدمي البرمجيات الصينيين. فالمعركة الطويلة التي شُنَّت ضد مايكروسوفت تركت سؤالاً قائماً إن كانت للحكومة الأمريكية، ولمدعي عام الولاية، وللشـركات القوية حجة لمايكروسـوفت أنها كانت تلجأ بكل تصميم إلى مط القوانين وثني الاتفاقيات.

وقد يكون الصينيون محقين. فيندر أن تتردَّد مايكروسـوفت، وهي من أكبر ثمرات الرأسـمالية الأمريكية، في اسـتخدام قوة السـوق لكسـب المزايا، حتى

في مماحكة القانون. وليس ثمَّة شك في أن الولايات المتحدة وسواها من دول الاقتصاد المتقدم لديها محاكم تُحْضِرُ المخالفين إليها، وغالباً ما يكون ذلك. وكان لأنصار نابستر Napster أكبر خطة قرصنة وقحة في تاريخ الولايات المتحدة، فقدَّموا تبريراً مبالغاً فيه وأحمق لتلك الخدمة، غير أنهم اضطروا إلى إنهاء ذلك النَّهج إلى الموسيقا المجانية، لتعود خدمة مأجورة.

وعند الحديث عن حماية الحقوق الفكرية، فلا بد للمسؤولين من الولايات المتحدة ومن بلدان أخرى لديها ملكيات تستحق الحماية، أن ينظروا إلى أن مهمتهم ضرب من سلطة سياسية عالمية وليست مسألة قانونية. غير أن الصين الآن تكسب من تدفق بضائع مقرصنة حُرّة أكثر مما تخسر، ولا تأبَه بالعنف الاقتصادي الذي تثيره اقتصادات أخرى.

وَيُشَكِّل تحدي المصدر المفتوح في الصين وسواها من البلدان النامية نقيصة جديدة لمسألة حصول الدول ذوات الأجور المنخفضة، وبخاصة الصين، على مزايا تمنحها منافسة لشركات تكنولوجية متقدمة في بلدان مُرتفعة الأجور. وتَستطيع مايكروسوفت أن تقول في الأسواق الأغنى، إن برامجها في النهاية تكلف مستعمليها أقل من المصدر المفتوح. وعندما يقال: إن المصدر المفتوح أقل كلفة، بسبب الطريقة المسهبة التي يُخدم ويُطَوَّر بها، فإن تطبيقه، وضبطه، وخدمته مع الزمن قد تتجاوز نظام ويندوز Windows الذي يدعمه مطورون أقوياء في مايكروسوفت، وفي مجموعة كبيرة جداً من الشركات ومختصّين في تكنولوجيا المعلوماتIT الذين يَعونَه جيداً.

أما في الصين، حيث أجور المبرمجين ومفككي الشيفرة زهيدة، فإن كلفة تقليد نظام يعتمد على لينُكس Linux وصيانته لا يجعله أغلى من ويندوز مع الزمن. إن استطاعة أُجور القوى العاملة الزهيدة في الصين تُمَكِّنُها من كَسْرِ احتكار البرامج المُسَيْطِرَة حَقّاً. فإن تَمَكَّنَت الشركات الصينية من أَن تؤكد استطاعتها على تَرْك البرامج الأمريكية والأُوروبية، فإن هذه الشركات الأمريكية

والأُوروبية ستَجِدُ نفسها مُضْطَرَّة إلى إيجاد سَبيل تدافع به عن مدَّخَرات مثلها. وكما أدركت شـــركات الصين أن موتـــورولا Motorola في حاجة إلى من يورد لها من الصين قطعاً لأجهزة الهاتف الجوال التي تنتجها تســـتطيع بها أن تنافس في ســـوق الصين وأسواق العالم، فإن هذه الشركات الصينية سوف تعرض على شركات عالمية أُخرى مصادرها الجديدة لأنظمة التشغيل والبرامج.

سَلْبُ المُنافِسين قُدْرَتَهُم التنافُسِيَّة

إن للقرصنة أثر ســـلبي على اقتصاد العالم. فالقَرْصَنَة تســـرق قِسْـــطاً من المبيعات التي كان لها أن تكون بيعاً مشروعاً. وإن القرصنة نذيرشؤم لِعالَم يَسْعى جهده لكي يجد سبلاً ينافس بها الصين، فالقرصنة تعَزِّزُ مَوْقِعَ منافسين صينيين مـــا كان لهـــم أن يبرزوا لو لم تكن لهم سُـــبُل عظيمة تُمَكِّنُهم من ســـرقاتهم. إن غلاء البرامج الفاحش الذي يفوق قدرة المســـتهلك في الصين يجعلهم يستبيحون قرصنتها. أليست الشاحنة، والمخرطة، وآلات قوالب الحقن باهظة الثمن أيضاً؟ فليس في الصين من يرى أن تغزو شـــركات الصين مستودعات الشاحنات وآلات الخراطـــة وقوالب الحقن الألمانية، واليابانيـــة، والأمريكية، برغم أن تلك الآلات لاتؤثر على نجاح أي شركة تُمارس القرصنة أثر البرامج التي تنتجها.

إن شركة إس إي بي، آ. جي SAP AG شركة ألمانية عملاقة تطور البرامج وتزود الشـــركات الكبيـــرة والصغيرة بنُظُم تحتـــاج إليها في التنســـيق، والبيع، والمحاســـبة، وأُمور أُخرى. وهي من أنجح بائعـــي البرامج في الصين. وكثيراً ما تصَمِّمُ النُّظُمَ الغالية التي تبتكرها مُفَصَّلةً لأعمال خاصَّة جداً لا يمكن نقلها من شركة إلى أخرى، وبرغم ذلك، فإنها لا تنجو من القرصنة.

فقد قال كلاوس تْزِمِّر Klaus Zimmer، رئيس فرع الشـــركة في الصين لرويترز Reuters: إن شـــركة صينية كبيرة دفعت لـــ SAP قيمة 250 رخصة برامج، ثم تَبَيَّن فيما بعد أنها تُشَغِّل 3.000 نسخة. ولو أننا افترضنا أن الشركة

قد دفعت قيمة الترخيص بناءً على عدد البرامج التي تنوي استعمالها، فإن كلفة برامجها – قبل أن تضبط – تبلغ 0.083 من قيمتها الحقيقية لو أنها سُدِّدَت كاملة. وقد تبلغ قيمة البرامج المُصَمَّمَة لتلبية حاجات منظمة كبيرة كهذه ملايين الدولارات. وإن تجَنُّبَ دَفْعِها يوَفِّرُ لها ملايين، ناهيك عن برامج ويندوز التي تُشَغِّلُهاSAP إضافة إلى برامجها، وهي برامج مُقَرْصَنَة هنا أيضاً. لقد نُهِبَت أرباح SAP في هذه الصفقة.

وينبغي حساب كلفة الميزة التنافسية التي استغلها المُغتصِب ضد الشركات التي كان يحاول ضرب منتجاتها في السوق. ويقول أندرو ميرثا Andrew Mertha أُستاذ العلوم السياسية في جامعة واشنطن في سانت لويس St. Louis: «ينظر كثيرٌ من خبراء الملكية الفكرية إلى المشكلات مع الصين من زاوية قانونية فحسب، ولايُعيرون الجانبَ الاقتصادي اهتماماً». لقد أمضى مارثا في تسعينيات القرن العشرين في الصين يعمل مع مسؤولين في الوكالات الحكومية الصينية المسؤولة عن حماية براءات الاختراع، وحقوق التأليف، والعلامات التجارية. «لا يعد الناسُ في تكنولوجيا المعلومات إغراءَ البرامج الرخيصة الذي لايقاوم وإن الثمن الرخيص هو ما يحتاج إليه الناس للمنافسة. وعند حساب الخسارة على أنها خسارة صانعي البرامج فحسب، فقد غَفِلَ الناس عن أن يَرَوا كيف تُسْرَق الصناعة الأمريكية».

ويقول مارثا: عندما تُنْفِق شركاتُ البرامج الغربية بعض الموارد في رصد مجرى بيع منتجاتها، فإننا لا نجد أحداً يَضْبطُ السُّبُل التي تُتيح للصناعات الصينية التي تستعمل برامج مجانية تقريباً أن تُحَقِّق مصالحها. ويضيف قائلاً: إن الأمر يتضَمَّن رأسمال اجتماعي أيضاً. إن أهمية الارتباط ضمن شبكة اجتماعية – جوَنكسي Guanxi – في الصين الحديثة يضمُّها ارتباطٌ وثيق عن تجربة البلاد المؤلة مع القوانين. ويشير مارثا إلى أن جوَنكسي قد ضعفت خلال فترة حكم ماو، عندما دفع التطرف الإيديولوجي للثورة المستمرة الصينيين

إلى قطع العلاقات التقليدية. ويقول: «إنها ليســت صدفة أن نرى جوَنكسي قد عادت تزأر بعد الثورة الثقافية. فعندما فشــلت الدولة في ضبط النظام، التفت الناس إلى نظام الشــبكة الذي يستطيع أن يُحَقِّق نوعاً من السيطرة الاجتماعية التــي تُمَكِّن الناس من أن يثق بعضهم ببعض وينتظر أن يحفِّز الناس، ضمن ذلك النظام، مصالح شــبكتهم». فإذا كان ثَمَّة اثنان كُلِّفا بشراء برامج لاستعمالها في عمل ما، فَقَرَّر أَحَدُهُما أن يعْمَل وفْقَ القانون، فينفق مئات الدولارات ثمن نسخة من ويندوز أو أوفيس أصليَّتين، بينما اشترى الثاني الشيءَ نَفْسَه بدولارين اثنين. فسوف يُنظَرُ إلى الأوَّل بين أترابه وزملائه غبياً، وسيرتفع موقع الثاني في أعينهم لاتخاذه القرار الصحيح. ولن يثِقَ أحدٌ بعدها بنباهة الأول وصَحَّة قراره.

ولعلك، إن تَفَحَّصْتَ أجهزة كومبيوتر معظم خريجي تسنجهوا Tsinghua فسوف تجدها مَحْشُوَّة ببرامج متفوقة طورتها شركات عالميّة رائدة في التكنولوجية. وإن جلْتَ في إحدى المنشآت الجديدة التي تعمل ليل نهار لِتُنْجَزَ منتجاً ليست سرقته ســهلة، وسألت إن كانت البرامج المســتعملة في إنتاج السلعة الجديدة مُرَخَّصَة، تطالعك ابتســامات العارف وإجابة غامضة: «فلا يخفى أن الناس الذين يعملون هنا لَحَّاظون جداً».

ما أَجْمَلَ الاسْتِعْمار المَعْكوس

إن فشــل الصين في ضبــط الملكية الفكرية هي في الحقيقة تشــكل إعانة مالية عالمية ضخمة تقدر بمئات البلايين من الدولارات لأعمالها ولشــعبها. وإذا نظرنــا إلى الموضــوع من زاوية أخرى نجد أن لخطط الصــين في القرصَنَة أثر في العالم كلِّه مثل أثر جيوش الاســتعمار القديم، تغزو عمق اقتصاد ضحاياها، وتصادر أعظــم وأهم مواردها، وبذلك تضعف قدرة الضحية على المواجهة. وإذ تنمو الصين لتصبح قوة عظمى، نجد الثروة التي دخلت إليها من قرصنة الملكية الفكرية تدفع البلاد قُدماً.

فهل تُلام الصين على سلوك يسلب بلدان العالم الثروةَ التي جمعها طيلة أجيال عديدة؟ قد يَصِحُّ ذلك، وربما يحتاج العالم إلى أن يعيد النظر في ذاته. فالصين تتصرف كما تتصرف دول أُخرى عندما تهبُّ رياحُها، وتُتاح لها فرصة لزيادة ثروتها وقوتها. فقرصنة الملكية الفكرية لم تكلف الصين شيئاً يُذكَر، وعادت عليها بفوائد جَمَّة.

لقد أعطت مئات بلايين الدولارات من الاستثمار الأجنبي التي تدَفَّقَت على الصين أفضل تكنولوجبة في العالم سَهَّلَت عمل قراصِنَة الصين. وقد ساهم العالم، باستثماره في بِنْيَة البلاد التَصْنيعِيَّة التحتية، بتقديم الخبرة، والآلات، والبرامج التي تحتاج إليها الصين لإنتاج مصنوعات وسِلَع عالميّة في جودتها، وإن العالم يساهم بذلك في تكوين أكبر مُجَمَّع لِقَرْصَنَة التَصْنيع، وأَفضله، وأَعْقَده، وأَنْجَحه.

وبينما يخاطر المستثمرون الأجانب بنجاحهم في الصين، فإنّهم، بذلك، يدفعون الصين إلى موقع يُمَكِّنُها من أن تكون واضعةً للقواعد. وعندما تضاهي الصين أكبر الأسواق العالمية وتصبح من أوائل المصَنِّعين والمُنتِجين في العالم في زمن غير بعيد،، فسوف يكون لها أسماء تجارية تملكها، وتملك صناعة للتسليةentertainment industry، وتكنولوجيا تضع معايير عالمية. إن بلداً مازال يعيش ذكرى ذُلّ الاستعمار المَرير، لن يشعر بذنب أو ندم على قلب الطاولات بِقَرْصَنَة مُمْتَلكات الأجانب.